بلسانٍ عَرَبيٍّ مُبين

أ. مُحمَّد عثمان أحمد إسماعيل*

دَرَجنا في المركز الإسلامي الأفريقي عَقْد اجتماعاتٍ أسبوعيَّة يشهدها أعضاء هيئة التَّدريس وجميع الطُّلاَّب بغَرض إبلاغ الطُّلاَّب التَّوجيهات اللازمة والاستماع إلى ما لديهم من مُلاحظاتٍ أو أسئلةٍ أو شَكاوى. وفي أحد هذه الاجتماعات وجَّه إليَّ أحد الطَّلَبة الأفارقة هذا السُّؤال:

لماذا لم ينزل القُرآن بلُغةٍ أفريقيَّة؟

تبسَّمتُ ثمَّ قلت له:

فإذا نَزَل بلغةٍ أفريقيَّة من المُتوقَّع أنْ يسأل آخر لماذا لم ينزل بلغةٍ آسيويَّة أو أوربيَّة؟ وإذا نَزَل بلغة الهوسا مثلاً يُتوقَّع أنْ يسأل أحدٌ: لماذا لم ينزل باللّغة السّواحيليَّة؟ أو الأمهريَّة؟ أو الماندنجو؟ ... إلخ. لكنَّك تقصد لماذا نَزَل باللّغة العربيَّة؟

قال: نَعَم. قُلت سأجيبك. سألته عن بلده، فقال: كينيا. قُلت: أتتحدَّث الإنجليزيَّة؟ قال: نَعَم. قُلت: لماذا يُسمَّى التَّمْر باللّغة الإنجليزيَّة؟ قال: dates. قُلت: فهل هناك كلمة أخرى؟ قال: لا. قُلت لأنَّنا مُعلِّم لغةٍ إنجليزيَّة لا أعرف كلمة أخرى غيرها. لكن تعال لي اللّغة العربيَّة تسمع وصفها للتَّمْر بجميع مراحل نموِّ ثمَرَته:

---

* مُدير مركز الدَّعوة وتنمية المُجتمع. جامعة أفريقيا العالميَّة. السّودان.

خ َلا الطَّلْعُ فَبَ ُسفْزرَهٌ ثْمُوٌّ رثُمُّطَعَجْ ْوةٌ ثمُّ تمَ ْرٌ إذا أردتُّ أنْ أتحدَّث عن العَ ْجوة باللّغة الإنجليزيَّة soft dates تأضطرُّ إلى إضافة كلمة أخرى مثلاً تَمْرٌ لينٌ . وقُل مثل ذلك عن الأسفلا يُوجد في اللّغة الإنجليزيَّة كلمة أخرى غير lion. صحيحٌ أنَّ الإنجليزأحياناً . يُسمّون الأسد man – eater ولكن هذا التَّعبير لا يقتصر على الأسد وحلإذْ يُطلَق أيضاً على النَّمروعلى التّمساح وسمك القرش مثلاً .أمَّا اللّغة العربيَّة ففيها عدَّة كلماتُطلَق على الأسد كُلٌّمنها يُضيف معنى جديداً . فكلمة هي اسم جنس هذا الحيوان، ولكنَّ العَرَب إذا أرادوا التَّحدُّث عن صفة الافتراس في هذا الحيفإنَّهم لا يستخدمون كلمة أسد مُطْلَقاً . فالتَجِدَ في كُلِّ التُّراث العربي تعبيراً مثل "أكلة الأسدو"إنَّما يستخدمون كلمةسبُع" فيقولون: أكَلَهالسَّبع. وجاء في كتاب الله الكريم ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣). فإذا سمَع العربيُّ كلمة سبع فسيفهم أنَّ الحديث عن هذا الحيوانمُضافاً إليه صفة الافتراسوالأسد الذي يتَّسم بالقوَّة البالغة يُسمَّى بَطْراً ويُسمَّى رَدْاً "إذا كان وردياً قالوأنبو الطيِّب المُتنبيِّ :

دٌ إذا وَرَدَ البُحيرَةَ شارباً وَرَدَ الفُراتَ زئيرُهُ والنِّيلا

حمَلني ذلك على الرّجوع إلى بعض المعاجم العربيَّةفوجدتُ ما يلي:

إذاكان الأسد شديداً سمُِّي "حمزة"في مختار الصِّحاحخمَالُزَّجْل" أي اشتدَّ وإذا كان هذا الحيوان غليظ الحَلْقسمُغَيِّضَ"نَفْراً " والضِّرْغام" هو الأسد الضَّاري الشَّديد الضَّراوة. فإذا كان الغليُظُق قويَّ الساعد سمُِّي "حيدرة" وإذا كان

شديد العَضِّ سُمِّيَ يَعْماً " لأنَّ الضَّغْطَ هو العَضُّ الشَّديد. وللأسد أسماء أخرى غير التي أوردتُها اسم منها يُضيف مَعْنى جديداً وقُل مثل ذلك في السَّيْف والبعير وأسماء عديدةٌ لا يمكن حصرها. ويُطلقون هذه الأسماء على اللّبن :

الصَّريك: حارّاً بعد حَلْبه مُباشرةً .

الصَّريخ: بعد حَلْبه إذا سكنت رغوته.

الخاثر: إذا بدأ يتغيرَّ .

الحازر: يتغيرَّ ولَسَعَ اللّسان.

الرَّائب: إذا خمَّر.

الحازب: إذا اشتدَّت حموضته.

وليس لأيٍّ مِنْ هذه الكلمات مُقابلٌ في اللّغة الإنجليزيَّة اللهمَّ إلاّ الرَّائب الذي هو الزَّبادي yogurt. وهنا ضرورة إضافة كلمة إنجليزيَّة أخرى إذا أردتَّ أنْ تُعبرِّ عن مَعْنى المَعاني الأخرى؛ فمثلاً اللّبن الحامض sour milk فُترادفاتٌ تُضيف كُلٌّ منها مَعْنى جديداً فقد وَرَدَت للّغة العربيَّة آلافُ المَعاني وظلال المَعاني وفروعها بما لا يَتَوفَّر في لُغة أخرى. يقول الإمام الشَّافعي رضي الله عنه العَرَب أوسَعُ الأُلْسنة مَذْهباً وأكثرها ألْفاظاً بجميع عِلْمِه فيما نَعْلَم إنسانٌ إلاّ نبيٌّ "[1]. ويقول ابن

[1] الرِّسالة، ص٢٧.

قُتيلْبيق: في جميع الأمم أمَّةٌ أوتيت مِن العارضة واتِّساع المجال ما أوتيه العَرَب خصِّيصاً مِن الله"[1].

وهذا يعني أنَّه ليست هناك لغةٌ قادرةٌ على الإبانة عن مقصود الله مثل اللّغة العَرَبيَّة. وهذا مَعْنى قوله تعالى: ﴿عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥).

ثمَّ إنَّ تراكيب اللّغة العَرَبيَّة وقَواعدها تُوفِّر مقدرةً على الإيجاز بما لا يتوفَّر في اللّغات الأخرى. تأمَّل كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ (هود: ٢٨) فستجد أنَّ بالكلمة حَرْف استفهامٍ وفعل وفاعل ومفعولين. أذكر أنَّني قُلْت للطَّالب صاحب السّؤال: لو أردت ترجمة هذه الكلمة إلى الإنجليزيَّة فسأترجمها بثماني كلمات:

Are we going to impose it upon you?

حَمَلني هذا أيضاً الرّجوع إلى ترجمات مَعاني القُرآن الكريم. الطَّبْع لا يُمكن ترجمة قوله تعالى حتى المَعاني تَعْسُر ترجمة الكثير منها بحَمل ذات الدّلالة في اللّغة العربيَّة. رجعت إلى ترجمة الأستاذ يوسف عبد الله علي. ولعلَّه أشْهَر التّرجمات وأكثرها تداولاً. بعض ما تبيَّن لي مِن عَجْزٍ فيها:

عند ترجمة معاني سورة الفاتحة. ترجم كلمة "ربّ العالمين" بـ:

Cherisher and sustainer

---

[1] صَوْن المَنْطِق، ص٥٧.

وقَصُرَت الكلمتان الإنجليزيتان عن أداء المَعْنى كلمة رَبْ كلمةٌ جامعةٌ في لسان العَرَب لا يُطْلَقُ في اللُّغة على المالِك والسيِّد والمدَبِّر والمُرَبِّي والمُنْعِم، وأضيف من عندنا: الواقي من الآفات وكلمة Cherish تَعْني يُعَبِّر عن حُبٍّ يَحفظ ويُنَمِّ باهتمامٍ في القَلْبِ أو العَقْل ولا أرى أنَّ كلمة Cherisher اسم الفاعل من هذه الكلمة عن الرَّبِّ فالله ربّ العالمين مُؤمنهم وكافرهم بهم ومَنْ يبغضهم.

أمَّا كلمة Sustain تَعْني يُؤازِر ويُغَذِّي ويُمِدُّ بأسباب الحياة؛ وأنت ترى أيُّها القارئ كيف عَجِزت هذه التَّعبيرة عن القَيِّم والمُدَبِّر والمالِك والسَّيِّد ...إلخ.

كذلك وقفتُ في فَواتِح سورة البَقَرة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) وكلمة التَّقْوى هي أيضاً إحدى الكلمات الجامعات؛ وقد أشار المؤلِّف في الحاشية عَجْزه تعَرْجمة كلمة التَّقْوى أنَّه يُتَرْجمها في كُلِّ سورة بحسب سياق مَعْنى الآيات التي تسبقها أو تليها والتَّقوى في اللُّغة تعني الصِّيانة والسِّتْر والحَذَر والتَّحمي والتَّقي وما يُدْفَعُ به الشَّرُّ والحِفْظ والوقاية.

تَرْجَم يوسف علي كلمة المُتَّقين هنا بـ Those who fear God أي الذين يخافون الوتَّبِّ حَم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١) بـ:

So that you have the chance to learn righteousness

وهذه العبارة تَعْني تُتاح لكم الفُرْصة لتتعلَّموا الاستقامة.

انظر إلى الآيات لكلمة التَّقْوى ومُشْتقَّاتها في سورة البَقَرة أيضاً :

وَاتَّقُوا يَوْماً ﴾ (البقرة: ٤٨) Then guard yourselves against

احموا أنفسكم ضدَّ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٦٣) Perchance ye may fear God

عسى أنْ تخافوا الله

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا واتَّقَوْا ﴾ (البقرة: ١٠٣) Guarded themselves from evil

وقوا أنفسهم من الشَّرِّ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩) So that you may restrain your selves

لعلَّكم تكبحون جماح أنفسكم

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣) So that you may learn self-restrain

لعلَّكم تتعلَّموا كبح جماحكم

وسيطول بنا الأمر إذا وصلْنا الكلمات المُشتقَّة من كلمة "اتقى".

وتستعصي تَرْجمَة كلمات العربية إلى اللُّغات الأخرى بما لها من أسرارٍ ودلائل لا يَعلمها إلاَّ العالِمون. تأمَّل مثلاً قولَه تعالى: ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥) وقولَه تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ (التحريم: ١١) جمع الأستاذ علي كلا الكلمتين زَوْج وامرأة بـ Wife وهذه الكلمة تعني في الإنجليزيَّة زوجة غير أنَّ كلمة "المشاكَلة والمشابَهة" كما في قولنا: "تزوَّجت زَوْجاً من الألمانيَّة" كانت المشاكَلة والتَّشابه بين فرعون وامرأته غير متوفِّرة في أهمِّ ما يُميِّز الإنسان العبوديَّة لله استُخدِمت كلمة امرأة. وقُل مثل ذلك في امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام[1].

فإن يقل أحدٌ لم فَأَقْبَلَتِ ﴿ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ (الذاريات: ٢٩) وقال: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ (آل عمران: ٣٥)؟ الإجابة أنَّ ليهما كانت عاقراً ممَّا يُشير إشارةً خاصَّةً إلى عَدَم المقدرة على الإنجاب ونجد القُرآن عندما يتحدَّث عن الزَّوجات حديثاً عامَّاً يشمل التي تُنْجب والتي لا تُنْجب يستعمل كلمة "نساء" كما جاء كثيراً في سورة النِّساء ممَّا يُشير إلى التَّعميم.

وتأمَّل تَرْجمَة يوسف علي لقوله تعالى: ﴿ اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾ (البقرة: ١٧)

kindled a faire ب عن الأستاذ يوسف ما تدلّ عليه الألف والسّين والتَّاء في اللُّغة العربية وهو الطَّلب استفهام واستعلم، استكتم، بمَعْنى طَلَبَ الفَهْمَ

[1] بتصرُّف من كتاب "نَظَرات لغويَّة في القُرآن الكريم" للبروفيسور صالح العايد دار اشبيليا للنَّشْر والتَّوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م، الرِّياض.

والعِلْم والكِتْمان غير أنَّ الكلمة الإنجليزيَّة kindled تعني المأنُّ تحدَّث عنه قام بإشعال النُّور ليست هذه التَّرْجَمة دقيقة.

يوالقُصير آنإلى الجِماع دون أنْ يستخدم أيًّا من مُشْتَقَّات هذه الكلمة لاَمَسْتُمُ النِّسَاء ﴾ (النساء: ٤٣) مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (البقرة: ٢٣٧) مَاشِرُوهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، ﴿ أَفَيْ نِسَآئِكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧) فلكُلٍّ من هذه الكلمات ظلالٌ لاحاتوَقَّفُ فيما استُخدم من كلمات لتَرْجَمَتلهَّال تَرْجَمَة يوسف علي بعبارة لاَمَسْتُمُ النِّسَاء ﴾: Ye have been in contact with women وكلمة contact الإنجليزيَّة ليست منمعاني الجِماعجَم بَاشِرُوهُنَّ ﴾ associate with them في تكون لكم صلة بهموتْحَم كلمة يَمَاسًّا ﴾ بـ touch each جَز التَّعابير الإنجليزيَّة واضحٌ لا يحتاج إلى كثير بيان.

وتأمَّل أخي القارئ ما جاء في كتاب "نظرات لغويَّة في القُرآن الكريم" للبروفيسور صالح العايلإذ يُشيلتَّرإلْجمأقَّتظلُّ عاجزةً عن نَقْل مَعَاني الآيات نقلاً كاملاً، ويُشير إلى قَوْل ابن قُتَيْبة - رحمه الله - تحدِّثاً عن كلام الله تعالى لا "يَقدر أحدٌ من التَّراجِم أنْ ينقله إلى شيءٍ من الألسنة كما نُقل الإنجيل عنالسريانيَّة والحبشيَّة وتُرجِم والتَّقَوَّرَاة والزَّبور وسائر كُتُب الله عزَّ وجلَّ بالعربيَّة، لأنَّ العَجَم لم تتَّسِع في المجاز اتِّساع العرب ألا تَرَى أنَّك لو أردت أنْ تَنقل قولهجلَّ ثناؤه: ﴿ إِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء ﴾ (الأنفال: ٥٨) لم تستطع أنْ تأتي بهذه الألفاظ مُؤدِّيةً المَعْنى الذي أُودِعَتْهُ، حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتُظهِر مستورها، فتقول إنْ كان بينك وبينهقَوْمٍ نِةٌ وعَهْدٌ، فخفت منهم خيانةً ونقضاً، فأعلمهم

أنَّك نقضت ما شَرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنَّقض استواء". انتهى كلامه ـ رحمه الله[1].

وأشار الأستاذ صالح العايد إلى قول بعض الحُكماء: لو اجتهدَ جميع النَّاس أن ينقلوا ـ أيَّ يُستَهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥) ما قَدروا، وكذا: وَغِيضَ الْمَاء ﴾ (هود: ٤٤)، ويأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (المائدة: ٥٤)، فثبت إنهم على سواء ﴾ (الأنفال: ٥٨)، لما فيه من الاختصار الذي هو إعجاز القُرآن، ومثله كثير". ولذلك قال الدكتور أحمد نسيم سوسة: "الواقع أنَّه يتعذَّر على المرء الذي لم يتقن اللُّغة العربيَّة، ولم يضطلع بآدابها أن يُدرك مكانة هذا الفُرقان الإلهي، ويتضمَّنه من المُعجزات المُبهرة"[2].

سيكُفتَوُ تحَرِمجِم قوله تعالى: فاصدع بما تُؤمَر وأعرض عن المُشركين) هذا الآية التي لما سمعها أعرابيٌّ سَجَد، فلمَّا سُئل لم سَجَدت ؟ قال: سَجَدتُ لفصاحة هذا الكلام[3].

وبما سيُتَرجم المُتَرجِم ألفاظ العموم التي ترد كثيراً في القُرآن الكريم، مثل: (ما كتب الله لكم)، في قوله تعالى: فالآن باشروهنَّ وابتغوا ما كتب الله لكم) (البقرة: ١٨٧) ؟ ولذلك أجاز بعض العُلماء تَرجمة القُرآن الكريم[4].

---

[1] "نَظَرات لغويَّة في القُرآن الكريم"، المرجع السَّابق، ص ٣٠.
[2] نفسه، ص ٣١.
[3] نفسه، ص ٣١.
[4] نفسه، ص٣١.

وأنىَّ لمُترجمٍ أن يُفرِّق بين (أكملت) و(أتممت) في قول الله تعالى: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة: ٣). سيُترجم مُترجم ما بـ ﴿ لِبَاساً ﴾ في قوله تعالى: ﴿ اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ (النبأ: ١٠) أم تراه سيفعل بها كما فعل أحد مُترجمي معاني القُرآن الكريم إلى اللّغة الإنجليزيَّة ترجمها بـ (Pants)!. وهي تعني سراويل.

كيف يُترجم مُترجم قوله تعالى: ﴿ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (النساء: ٢١). كلمة أفضى تحمل كُلَّ أسرار الحياة الزَّوجيَّة. ترجمها يوسف علي بقوله: have gone in unto each other، إشارةً إلى الجانب المادِّي الجسدي فقط.

وأشار الأستاذ في الخاتمة النَّفيس هذا إلى ما أدركه المُستشرقون الذين تعلَّموا اللُّغة العربيَّة من روعة لُغة القُرآن:

قال المُستشرق الفرنسي جاك ريسلر: "كانت روعة القُرآن في أسلوبه فقد أُنْزِلَ ليُقْرأ ويُتْلى بصوت عالٍ، ولا تستطيع أيّ ترجمة أن تُعبرِّ عن فروقه الدَّقيقة المُشبَّعة بالحساسيَّة الشَّخصيَّة، ويجب أنْ تقرأه في لُغته كُتِبَ لتتمكَّن من تذوُّق جماله وقوَّته وتفرُّده، ضمن إطار المجتمع؛ ليُثير في النَّفْس، حيث تزخر الأفكار والصُّور المُوحيّة نضارةً، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يُنكر أنَّ السِّحر يُطالعنا في سموّ الرُّوحيّ يُسهمان في إشعارنا بأنَّ محمَّداً ﷺ مُلْهَماً بجلال الله وعَظَمته"[1].

[1] المرجع السَّابق، ص٣٢.

وقال المُستشرق الإنجليزي سير هاملتون ألكسندر روسكين جب: "... والواقع أنَّ القُرآن لا يمكن ترجمته بشكلٍ أساسيٍّ كما هي الحال بالنِّسبة للشِّعر الرَّفيع، إذ لا يمكن بالتَّعبير عن مكنون القُرآن باللّغة الماديَّة، ولا يمكن أن يُعبرَّ عن صوره وأمثاله، لأنَّ كُلَّ عطفٍ أو مجازٍ أو لغويَّة يجب أن تُدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ والقُرآن كذلك له حلاوةٌ ونظامٌ وبديعٌ مُرتَّبٌ لا يمكن تحديده، لأنَّها أي هذه الحلاوة تُعدُّ بسحرها أفكار الشَّخص الذي يصغي إلى القُرآن لتلقِّي تعاليمه، ثمَّ لا شكَّ في أنَّ تأويل كلمات القُرآن إلى لُغةٍ أخرى لكن إلاّ أن يُشوِّهه، ويحُوِّل الذَّهب النَّقيَّ إلى فخار"[1].

وقالت الإنجليزيَّة إفيلين كوبولد الواقع أنَّ جمُل القُرآن وبديع أسلوبه لا يستطيع لمسٌ ولا تعبيرٌ أن تذهب التَّرجمة بجماله وروعته، وما عسى يهمُّ جرسٍ لفظيٍّ لا تجده في غيره من الكُتُب"[2].

وقال الإنجليزي روم لاندو "أنَّ مهمَّة ترجمة القُرآن بكامل طاقته الإيقاعيَّة لغةٍ أخرى تتطلَّب عناية رجلٍ يجمع الشَّاعريَّة إلى العلم، فإنَّنا لم نعرف حتى وقتٍ قريبٍ ترجمةً جيِّدةً استطاعت أن تتلقَّف شيئاً من روح الوحي القُرآني، والواقع أنَّ كثيراً من المُترجمين الأوائل يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك يُخفقون في إعطاء الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتَّحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقُرآن شكلٍ مكتوبٍ لا

[1] المرجع السابق، ص٣٣.
[2] نفسه، ص٣٣.

تستطيع أن تحتفظالبإيقاعِ الجَرْسِ علي الآجرْمه الذي يُرَتِّلها به المُسلِم، وليس يستطيع الغَرْبيُّ أن يُدْرك شيئاً من روعة كلمات القُرآن وقوَّتها إلاّ عندما يسمع مَقاطِع منه مُرَتَّلةبلُغته الأصليَّة"[1].

وحاصل الأمر أنَّ الحِوَارمَنبيَّالقِساع المَعَاني وسَلاسَةالتَّعبْيق المَعْنى وظلال المَعَاني وفروعهالا يتيسَّر في أيِّ لُغةٍ أخرى. وفي كتاب البروفيسور صالح العايد غُنْيةٌ جزاه الله خيراً وأطال عُمرَه.

[1] نفسه، ص٣٣.